

العراقيون يدافعون عن الأعمال الإنسانية

غريغ هانسن

لقد عملت مع زملائي العراقيين في إجراء مقابلات مع مقدمي المساعدة والمستفيدين منها في العديد من المجموعات العراقية الدينية. وقد وجدنا أدلة قوية على الالتزام بالأخلاقيات الإنسانية في العراق. ولكن هناك مخاوف خطيرة من طريقة العمل التي ينتهجها العاملون في المساعدات الإنسانية. ولا يتم بذل جهود منظمة كافية لردم الهوة بين الأخلاقيات والممارسات.

العراقيين الذين تحدثنا معهم بين المبادئ الإنسانية وبين الآيات القرآنية الخاصة بالأعمال الخيرية.

والسبب الآخر حول سبب فهم المبادئ الإنسانية بشكل جيد في العراق وهو أن هذه المبادئ كثيراً ما تظهر في الأزمات وبطرق تحدث استياء. وسمعنا أمثلة عن مساعدات قدمت بطرق توضح تسييس وعسكرة الأنشطة الإنسانية من قبل كل من المنظمات المحلية والدولية. وكثيراً ما يكون من غير الممكن عملياً للعراقيين (وأحياناً للمتخصصين في العمل الإنساني) التمييز ما بين أدوار وأنشطة المنظمات المحلية والدولية، بما في ذلك القوات العسكرية والمنظمات السياسية والسلطات

لقد عبر معظم العراقيون الذي تكلمنا معهم عن تضامنهم الواضح والكامل مع أهداف ومبادئ العمل الإنساني، وتعاطفهم مع الجهود الجيدة للعمل الإنساني وفهم قوي للمبادئ الإنسانية الخاصة بالحياد والاعتمادية والنزاهة. وهناك فهم واسع لطبيعة مبادئ العمل الإنساني وللنشاطات التي لا تشكل جزءاً من هذه النشاطات. وقد سمعنا مراراً وتكراراً أن هناك سمات واضحة وبارزة للتعاليم الإسلامية والتقاليد العراقية في المبادئ الرئيسية ونظام عمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر وجمعية الهلال الأحمر والمنظمات غير الحكومية في عمليات الإغاثة التي تقوم بها. وقد ساوى الكثير من

الأخرى، والمقاولون الذين يعملون من أجل الربح والمنظمات غير الحكومية الدولية والمحلية وبين وكالات الأمم المتحدة. وقد كان من الواضح في بعض المحادثات التي قمنا بها أن الشركات التجارية المنتسبة للقوات متعددة الجنسيات قد أساءت للمنظمات غير الحكومية الإنسانية. كما كان من غير الواضح بشكل كامل في الكثير من المقابلات الأخرى أي نوع من أنواع الوكالات التي تمت مناقشتها.

وغالباً ما يكون هناك تناقض بين تقبل المبادئ الإنسانية بشكل عام وحقائق المساعدات ويزيد من ذلك التناقض الشكوك التي تدور حول نوايا ودوافع الوكالات. وتحدث المقيمون في المناطق المتضررة من الأنشطة العسكرية المكثفة عن تعرضهم للإهانة من قبل وكالات تبدو أنها وكالات المساعدات بالإضافة إلى "المحتلين" أو من قبل منظمات تبدو أنها منظمات تعمل من أجل تجميل وجه الاحتلال. وتحدث آخرون عن رفضهم لأية مساعدات قدمتها لهم القوات المسلحة إثر العمليات العسكرية.

عوامل الحماية ضد الهجمات التي يقوم بها المقاتلون من كافة الأطراف. وفي معظم الحالات، لم ينسب من تكلمنا معهم النوايا غير الحسنة للمنظمات أو العاملين في تقديم المساعدات وذلك لمجرد منشأهم الوطني. وبدلاً من ذلك، يكون هناك تشكك كبير في نوايا الأشخاص الذين يعملون مع المحتلين (القوات متعددة الجنسيات) أو الحكومة أو من يعمل مع أي جماعة من الجماعات المسلحة.

إن لعدم الالتزام بالمبادئ الإنسانية والتمييز المشوش بين الأطراف والأدوار المختلفة في العراق عواقب خطيرة على المجتمعات المستفيدة والعراقيين المساهمين في الجهود الإنسانية. فمنذ عام ٢٠٠٤ أصبحت قدرة العاملين في المساعدات على الالتزام بالمبادئ الإنسانية في عملهم بشكل واضح ضعيفة جداً بسبب التهديدات الأمنية وتفضيل كافة العراقيين تقريباً والمنظمات الإنسانية الدولية بشكل عام بالتالي لأداء عملها ونشاطاتها بطريقة مستترة.

التحصن ومرافقة الجيوش

من الصعب الوصول إلى المباني التي تقع في المنطقة الخضراء والمباني الحكومية وتلك التابعة للقوات متعددة الجنسيات إلا لعدد محدود من العراقيين، على فرض استعداد هؤلاء لتحمل مخاطر الدخول لهذه المنطقة. وبينما يختار العراقيون العاملون في المنظمات الدولية تحمل هذه المخاطر يوماً، فإن قدرتهم على مواصلة القيام بذلك تضعف بشكل متزايد مع تدهور الوضع الأمني. وبالنسبة للفريق الدولي من المانحين ومنظمات الأمم المتحدة المختفية داخل هذه المنشآت، فإنه في الغالب ليست هناك احتمالية للتحرك خارج تلك الأسوار الحصينة دون مرافقة القوات متعددة الجنسيات أو قوات الأمن الخاصة. ونتيجة لذلك، لا تكون هناك فرص في الغالب لصناع القرار الرئيسيين في المنظمات الإنسانية الرئيسية بتوصيل قراراتهم للظروف التي تحدث في العراق، كما تتضائل فرص التحدث مع العراقيين الذين يرفضون دخول مثل هذه المباني.

كما يطغى الشك على المزاياء والفوائد التي تدرها المساعدات الإنسانية على العراقيين عندما تلجأ المنظمات الإنسانية في عملياتها إلى اتباع أسلوب

المساعدات. ومع ذلك، سمعنا عن الكثير من الأمثلة عن عمليات ضغط تعرضت لها المنظمات الخيرية الدينية المحلية لكي توافق بشكل أكبر على رغبات وأولويات الجماعات المسلحة.

ولا تعتبر فكرة المحايدة فكرةً مجردة في العراق، فالعراقيون على أهبة الاستعداد للتمييز بين مقدمي المساعدات الذين لم يلتزموا الحياد وأولئك الذين التزموا به. وتعتبر مسألة الحياد من وجهة نظر الكثير من العراقيين والعاملين في تقديم المساعدات عاملاً هاماً من

وعادة ما كان يتم التمييز بسهولة بين المساعدات التي تقدمها المنظمات الخيرية الدينية المحلية والمساجد وبين المساعدات الأخرى التي تقدمها المنظمات الأخرى والتي وصفها الكثير ممن تقابلنا معهم بأنها حيوية. وعلى عكس كافة المنظمات الأخرى تقريباً، فإن المساجد والمنظمات الدينية أحياناً (وليس دائماً) ما تكون قادرةً على تقديم مساعدات بطرق أكثر وضوحاً وأكثر انفتاحاً بشكل نسبي. وقد تم تحديد المنظمات الخيرية الإسلامية المحلية والمساجد في الكثير من المقابلات التي قمنا بها بأنها الخيار الأفضل لمن هم في حاجة للحماية أو



عراقية تعتني بقرين لها في مستشفى مدينة الصدر في بغداد بعد أن فقد الطفل كلا ذراعيه في هجوم تفجيري

يستخدم العاملون في المساعدات الإنسانية في العراق وعمان مصطلحات مثل "خفي" و "مكتوم" و "مستتر" لوصف الأوضاع التي وصلت إليها العمليات الإنسانية المستترة التي تقوم بها المنظمات العراقية والدولية نتيجة للتهديدات والهجمات. ويقدم النهج المستتر قدراً أكبر من الأمن للعاملين في المساعدات الإنسانية، ويمكن الوكالات من الاستفادة من المزيد من الوقت وإمكانية الوصول. ومع ذلك، تسببت هذه المزايا في تكلفة عالية للقبول. ويوضح البحث الذي قمنا به بين العراقيين أن التصورات المتعلقة بالمنظمة الإنسانية هي إيجابية لدرجة كبيرة بين من لهم اتصال مباشر بالمساعدات والحماية الدولية أو المحلية أكثر ممن تشكلت انطباعاتهم من خلال الإشاعات ووسائل الإعلام. ومن ثم لن تكون الحملات الإعلانية وحملات الدعم أمراً كافياً لإقناع العراقيين بالنوايا الإنسانية لوكالات المساعدات: حيث أنهم ينظرون إلى النتائج الملموسة. ويشعر العراقيون الذين تلقوا مساعدة من منظمات إنسانية محلية أو دولية أو رأوا هذه المنظمات وهي تعمل بشعور إيجابي تجاه المجتمع الدولي أكثر ممن سمعوا فقط بذلك.

تعمل تشكيلات العمل الغير بارزة بشكل متزايد على إعاقة العلاقات بين فريق العمل وبين الوكالات. كما تنعكس أيضاً التوترات الداخلية على المنظمات الإنسانية، وحتى بين أعضاء فريق العمل ذوي الخلفيات المختلفة الذين عملوا مع بعضهم البعض لسنوات. وتقع علاقات العمل تحت إجهاد متزايد بحيث تفرض المناهج منخفضة المستوى على فريق العمل بأن يعملوا من منازلهم مما يقلل من فرص الاتصال المتكرر بزملائهم.

وهناك اتجاه متزايد بين العاملين الدوليين في المساعدات الإنسانية (وأيضاً بين المانحين والسياسيين) نحو معاملة الحالة الأمنية في العراق وكأنها تشكل تحدياً ضبابياً ومعماً ومنيعاً أكثر من كونها سلسلة من الحوادث الخطيرة. بحيث يمكن تحليل كل حادثة منها ووضعها في سياق واستخدامها كدافع للتكيف. وبالنسبة لبعض الوكالات، فإن الفهم المحدد والمحدود لديناميكية انعدام الأمن أصبحت تشكل تبريراً لانعدام التأكيد والتدخل والإبداع. وهناك انخفاض حاد منذ أوائل عام ٢٠٠٤ في عدد العاملين الدوليين في المساعدات الإنسانية في عمان الذين يتمتعون بخبرة جديده في الدولة؛ حيث بقي عدد قليل منهم.

” خلال الهجمات التي قامت بها القوات الأمريكية في الفلوجة والنجف عام ٢٠٠٤، استجاب الكثير من العراقيين بشكل فوري لمساعدة الأشخاص المحتاجين وذلك عن طريق تجميع شاحنات من الغذاء والبضائع الضرورية الأخرى من أحيائهم لتوزيعها من خلال المساجد في المدن المنكوبة. وقام الكثير من الشيعة بتقديم المساعدات في الفلوجة، كما قام الكثير من السنة بنفس الشيء في النجف.

ذلك، تم الترحيب بهذه المكاتب في الكثير من المناطق للمساعدة التي توفرها في حماية الأرواح.

ولا تحمي "استراتيجيات القبول" العاملين في المساعدات الإنسانية من الهجمات في العراق ولكنها تساهم في تحسين مدى تكيف واستمرارية برامج المساعدات الإنسانية. كما توقفت بعض المنظمات الغير حكومية العراقية والدولية، والتي كانت قد قررت اتباع منهج أممي مستقل في عمليات المساعدة الإنسانية الذي يعتمد بشكل أكبر نسبياً على العلاقات وعلى مدى تقبل المجتمعات المحلية لعملهم ونشاطاتهم، عن متابعة نشاطاتها بينما بقيت بعضها الآخر مستمراً في عملياتها. ويبدو أن المنظمات التي تتسم بالمرونة، والتي أمضت وقتاً كبيراً و موارد كثيرة في فهم الميول المحلية (إضافة إلى الوطنية) والتي تقوم ببناء علاقات وشبكات دعم وتحسين مهارات العاملين بها، تتسم بأفضلية نسبية في العراق أكثر من الوكالات ذات الروابط الأقل تأصلاً.

لا بديل عن التواجد الفعلي

'التحصن' أو ربط نشاطاتها بمرافقة القوات متعددة الجنسيات. وقد انسحبت بعض المنظمات التي قبلت بحماية القوات متعددة الجنسيات أو بدت وكأنها قامت بذلك عن طريق استخدام شركات أمن خاصة من العراق بحجة انعدام الأمن الذي يواجهه موظفيها أو وجود تأثير إنساني غير كاف بالمقارنة بتكاليف الأمن المرتفعة. وليس هناك أية إشارات على أن التحصن أو اتباع أساليب الحماية المكثفة تضمن استمرار ونجاح البرنامج أو أنها تشكل وسيلة مفيدة لزيادة وصول الأفراد لهذه الخدمات والحصول عليها.

إن الاعتماد بشكل كلي في القضايا الأمنية على القوات متعددة الجنسيات أو الشركات الغربية الخاصة يؤيد أو يدل على تطابق أهداف بعض وكالات المساعدات وأهداف القوات العسكرية، ويرفض العديد من العراقيين مثل هذا الترابط، وبشكل مشابه لا يبادر العديد من العراقيين أي شك بخصوص الترابط والتحالفات السياسية وأهداف مكاتب الخدمات الاجتماعية التي تديرها المجموعات المسلحة أو التي تقع تحت حمايتها. ومع



مخيم الرويشد
للاجئين في
المنطقة المحايدة
بين العراق
والأردن

المدرسة التي تقع آخر الشارع. ويعمل أحمد بمفرده معظم الوقت. وفي المناخ الحالي من الخطر وعدم الثقة واسعة الانتشار، وجدت المنظمة التي يعمل معها بصعوبة مساعداً يعمل معه. وهذا هو الخوف والبغض في العراق الذي تقابل فيه الدوافع والانتماءات بشك حاد. وقد عمل وفقاً لميزانية قليلة تحد من نشاطه مع ازدياد احتمالية تعرضه للقتل.

هناك القليل من العراقيين مثل أحمد. فالمنظمة التي يعمل بها هي واحدة من العديد من المنظمات التي تكيفت هي وجمعية الهلال الأحمر العراقية واللجنة الدولية للصليب الأحمر مع طريقة عملها عندما ساءت الحالة الأمنية وعندما تضائل دعم المانحين. وتحتاج هذه المنظمات للبدء في الشعور بأن العالم يقف خلفها. فقد قتل ما يقرب من ٨٨ من العاملين العراقيين والدوليين في المساعدات الإنسانية وحقوق الإنسان في الصراع الدائر في العراق بين مارس ٢٠٠٣ و مايو ٢٠٠٧. ويقدم الحافز الجديد الخاص بالأمم المتحدة تجاه إطار عمل مجدّد للعمليات الإنسانية في العراق نقطة صلبة للتعامل مع العواقب الإنسانية الخاصة بالأنظمة العراقية الركيكة لدعم الحياة. ويعد ذلك خطوة بارزة للأمم لمنظمة عوقبت بشدة من خلال محاولاتها الميسرة لمساعدة وحماية العراقيين. ويتمثل التحدي الذي يواجهه الآن المنظمة الإنسانية التابعة للأمم المتحدة في تحديد إطار العمل، دون أن تصبح مرة ثانية غطاءً لدور الأمم المتحدة السياسي الذي يحدده مجلس الأمن.

في الأشهر والسنوات القادمة سوف يكون هناك توجيه واضح للمانحين بأن يضعوا في حسابهم الدور الرئيسي للحياح الحقيقي في العراق، ومخاطر الربط بين الأهداف السياسية والعسكرية وبين العمليات الإنسانية. وتثبت الأدلة أن العمليات الإنسانية التي تفتقد للمبادئ الإنسانية في العراق تتعرض للرفض.

غريغ هانسن (ghansen@islandnet.com) هو عامل مساعدات إنسانية كندي وباحث يقيم حالياً في عمان. وقد قام هو وفريق من العراقيين بعمل دراسة حول مفاهيم العمل الإنساني خاصة بأجندة العمل الإنساني: مشروع ٢٠١٥ لمركز فاينستين الدولي، جامعة تفتس. توجد دراسة "تعرف على مبادئ العمل الإنساني في العراق" على الإنترنت على الرابط <http://fic.tufts.edu/?pid=32>. وسوف تكون الدراسة الكاملة الخاصة بالدولة متاحة بعد فترة قصيرة على الموقع الخاص بمركز فاينستين الدولي (www.fic.tufts.edu).

١. www.icrc.org/web/eng/siteeng0.nsf/htmlall/57JMNB
٢. www.irffi.org
٣. www.iraqcompact.org

وصول أفضل للمجتمعات المحتاجة وشعور أفضل بالظروف الموجودة. ويفرض المانحون معايير مزدوجة شنيعة، حيث يصرّون على معايير مساواة أكبر بخصوص الإنفاق على الأعمال الإنسانية الخاصة بحماية الأرواح أكثر من مخططات إعادة البناء المشبوهة التي تخرج من المنطقة الخضراء. إن مصداقية المانحين على المحك بين العراقيين وعلى المستوى العالمي.

وكما وصف أحد العاملين الدوليين في مجال المساعدات الإنسانية المعضلة الحالية فإن: "المانحون يشتكون على نحو متكرر بأن جودة المعلومات المتاحة حول الاحتياجات الأساسية في العراق ليست جيدة بالقدر الكافي، ولهذا السبب لا يقومون أي شيء؟ وعندما تكون الطرق التقليدية لتقييم الاحتياجات غير ممكنة بسبب انعدام الأمن والمشاكل المتعلقة بالتنقل، فإلى أي مدى من الدقة تحتاج أن تكون عليها البيانات؟ لأي مدى من الدقة كانت عليها في أبريل من عام ٢٠٠٣؟ ومتى سوف يتم الضغط على زر التشغيل؟"

ولم تقدم أيّاً من مرفق الصناديق الدولية لإعادة إعمار العراق ٢- الصندوق الذي تديره الأمم المتحدة والبنك الدولي والذي تأسس أوائل عام ٢٠٠٤. ولا وثيقة العهد الدولي مع العراق ٣- المبادرة التي أطلقها زعماء العالم في المؤتمر الذي عقد بمنهج شرم الشيخ المصري في ابريل ٢٠٠٧- أية أموال جاهزة كاستجابة للحالة الإنسانية الطارئة في العراق: حيث أنها عرضة أيضاً للتسييس من قبل السلطات العراقية والسلطات الدولية. وتوضح المقابلات التي قمنا بها مع فرق عمل وكالات المساعدات ومع المجتمعات العراقية وجود نقائص خطيرة في سلوكيات المانحين. فقد أوضحت فرق العمل المساعدات في جمعية الهلال الأحمر والصليب الأحمر ووكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية الوطنية والدولية وجود نقص في الحصول على أموال المانحين مما يسبب تهديداً للبرامج الإنسانية الحالية والمستقبلية.

يعمل أحمد في إحدى المنظمات الإنسانية غير الحكومية. ويحاول أن يعمل متخفياً محاولاً تجنب السيارات المفخخة ونقاط التفتيش لتقديم المساعدة الطارئة للأحياء المنقسمة المنكوبة في مدينته المحبوبة. وقد قرر أحمد أن يبقى في بغداد وتقديم المساعدة قدر إمكانه لتخفيف المعاناة عندما تنفجر القنابل وتفتح القوات أو المسلحون نيرانها أو عندما تهجم الجماعات المسلحة في الليل. ويقول أحمد "إنني مستعد للذهاب إلى الجنة". وبالنسبة للجزء الأكبر، فإن الناس في الحي الذي يقطن به أحمد ليسوا أشخاصاً نازحين داخلياً. فعاليبتهم محتجزين أو عالقين داخلياً، ينتابهم الخوف من ترك منازلهم والذهاب إلى السوق أو العيادة أو الصيدلية أو

وخلال هذه الفترة، عقدت المنظمات الإنسانية غير الحكومية اجتماعات منتظمة في بغداد لتنسيق عملياتها وتبادل المعلومات وشحنات المساعدات. واتسمت هذه الاجتماعات بمعدل حضور جيد من قبل فرق العمل الدولية بشك حصري. وفي إحدى هذه الاجتماعات حضر إمام متعلم ذو زي تقليدي له تاريخ طويل في معالجة التوترات بين المجتمعات ومساعدة الوكالات الدولية على الوصول إلى أماكن الصراع المنكوبة. وقد عرض تسهيل الوصول إلى الفلوجة من خلال اتصالاته بين رجال الدين السنة المحليين، كما دعا لحضور اجتماع خاص بإحدى المنظمات غير الحكومية الدولية ذات الخبرة والتي عمل معها في السابق. وقد اعترض ثلاثة من العاملين الدوليين في المساعدات الإنسانية على حضوره وطلب منه مغادرة الاجتماع. وقد سأل أحد المعارضين عن سبب اعتراضه فقال "هؤلاء هم الإرهابيون الذين يهاجموننا".

لقد سمعنا بوجود اعتقاد شائع إلى حد كبير بأن كل جهود المساعدات سواء أن كانت دولية أو محلية هي فاسدة. فقد ازدادت ثروات الأغنياء في عمليات إعادة البناء منذ عام ٢٠٠٣، كما تسببت المعاناة اليومية في الحياة في جعل العراقيين يشعرون بخيبة الأمل والغضب. فقد ذكر بعض ممن تكلمنا معهم أنهم سمعوا من خلال وسائل الإعلام عن مليارات الدولارات التي دخلت العراق، وبعد ذلك ظهرت الكثير من الدعاوى حول وجود مقاولين ومسؤولين فاسدين و محطات لدعم الكهرباء غير مناسبة ولا يمكن الاعتماد عليها وتكاليف مرتفعة للوقود وعمليات إعادة بناء غير جيدة للمدارس ومجموعة كبيرة من المشاريع الخفية التي لم يتولد عنها أية منفعة.

نقص صارخ في تمويل المساعدات الإنسانية

لقد تم تحقيق أثر كبير خلال بضع سنوات فقط، ففي أواخر عام ٢٠٠٢، دعت الأمم المتحدة لجمع ١٩٣ مليون دولار للاستعداد لحالة الطوارئ الإنسانية التي اعتقد بأنها وشيكة الحدوث. وبعد مرور أشهر قليلة، كانت هناك دعوة أخرى لجمع ٢,٢ مليار دولار لتغطية مساعدات تمتد لسنة أشهر. ولكن الآن، عادة ما تكافح المنظمات التي تحاول إنقاذ أرواح العراقيين في الإبقاء على عملياتها في ظل مناخ تبرع غير داعم. فقد أصبح المانحون بطيئون في الاستجابة للحالات الطارئة الإنسانية المتزايدة. فبالنسبة للكثير منهم، يعد تقديم المساعدات اعترافاً بفشل استثمارهم لمليارات الدولارات في مشاريع إعادة إعمار العراق الخاصة بهم. ومما يدعو للسخرية أنهم كثيراً ما ينتقدون عمليات المنظمات الإنسانية - وكان الحكومه العراقية المعزولة أو بعض المستفيدين الانتهازيين من الحرب كان لهم إمكانية